تقديم العارض

وكأننا في مصرنا مازلنا نعيش في القرن السابع عشر !

بدأ هذا القرن في أوروبا بما أطلق عليه اسم "النهضة" (Renaissance – وهي كلمة تعني إعادة الولادة). أعقب هذه الفترة في القرن نفسه ولادة الثورة العلمية، وبدأ صداع وصراع بين الأخ الأكبر والأخ الأصغر، بين القديم والمولود الجديد. كان أسلوب مفكري "النهضة" ويطلق على أسلوبهم اسم "الأنسنة Humanism"[1] هو إعادة اكتشاف ما كتبه المفكرون القدماء خصوصا من الإغريق والرومان، وجمعه كما هو وإعادة سرده بلا دراسة نقدية. وكان لهم في هذا أسلوبهم وطريقهم وطريقتهم، أما أهل الثورة العلمية فكان لهم أسلوب آخر سمى بالمنهج العلمي[2] وهو إخضاع كل معلومة لدراسة تزعم لنفسها الموضوعية والبحث عن الحقائق والنتائج. ودار صراع بين الأسلوبين امتد حتى الآن.

ويستحضر جولد كعادته وكأساس لكتبه قصة من قصص الحيوانات القديمة. والقصة عن الثعلب والقنفذ مستمدة عن قصيدة للشاعر اليوناني الجندي ارشيلوكوس Archilochus وهي عن مثابرة القنفذ ومكر الثعلب. فالثعلب متعدد الكفاءات وهو يحاول أن يجد لكل مشكلة حل. فهو يجلس مرهفا للسمع وعلى وجهه نظرة ذكية منتبهة. فإذا ظهر خطر ما يتصنع الموت أحيانا، ويدخل في حفرة أحيانا أخرى، أو يهاجم في أحيان ثالثة أو يعدو هاربا. أما القنفذ فله حل واحد في منتهى الكفاءة، فهو يضع رأسه في بطنه ويتحول إلى كرة من الشوك لا ينال منها أي معتد إلا الأذى. ورغم تأكيد جولد بأن أيا من العلم والإنسانيات لا ينطبق عليه وحده مكر الثعلب أو مثابرة القنفذ، فإنه يتصور أن الجمع بين الأسلوبين هو السبيل الوحيد الصحيح أمام الإنسانية لتواجه العالم الذي نعيش فيه.

---

[1] [تستعمل كلمة humanism الآن خصوصا في إنجلترا لوصف مجموعة من الناس يرفضون الأديان ولا علاقة لهم بالمعنى الوارد هنا س.ح.ص.]

[2] Scientific method

ويواجه كل من الثعلب والقنفذ مشاكل الحاكم Magister الذي يفرض نفسه على رجال الإنسانيات ورجال العلم، فيصادر أعمالهم ويلوث كتاباتهم بالحذف أو الشطب (أو ببثور الجدري Magister's pox).

❀ ❀ ❀ ❀

أحببت جولد منذ قرأت كتابه "ديناصور في جبل من القش"[1] وهو مثل أغلب كتبه مجموعة مقالات نشرت في مجلة التاريخ الطبيعي[2] وتناقش مجموعة ضخمة من المشاكل العلمية والإجتماعية عن التطور والجيولوجيا وعلم الحفريات وغيرها من المواضيع. أما عن عامة كتبه فقد كان من أهم المدافعين عن نظرية التطور البيولوجي والدارسين له ولآلياته.

وقائمة كتب جولد طويلة ومرفقة.

ويتمتع جولد – إلى جانب معارفه العلمية والأدبية والفنية– بأسلوب جميل بل رائع يجيد فيه استعمال العديد من الكلمات القليلة الاستخدام، ولكنها أكثر دقة في التعبير عما يريد أن يقول.

❀ ❀ ❀ ❀

عندما كان جولد في الخامسة من عمره، زار المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي حيث رأى الهيكل العظمي للديناصور الضخم " تيرانوسورس"[3]. ومنذ هذه اللحظة قرر أن ينفق حياته في جمع الحفريات ودراسة التطور.

❀ ❀ ❀ ❀

---

[1] Dinosaur in a Haystack

[2] Natural History

[3] Tyrannosaurus rex

عمل جولد في جامعة هارفارد كأمين لمتحف علم الأحياء المقارن، وكان موضوع رسالته للدكتوراه هو تطور قوقع برمودي نادر، وبنى نظرياته فيما بعد على دراساته للقوقع.

كانت دراساته، ودراسات زميله نايلز إلدريدج Niles Eldredge عن ثلاثيات الفصوص[1]، توحي لهما بأن التطور يسير بقفزات واسعة يتلوها فترات سكون وليس كما افترض داروين بعملية تدريجية بطيئة، وأطلق على هذا الأسلوب اسم "التوازن المتقطع"[2].

لعب جولد دوراً كبيراً في دراسات التطور البيولوجي للعمليات المختلفة: الكيميائية والوراثية والفسيولوجية والإجتماعية.

❀ ❀ ❀ ❀

ولعل أهم ما يربطنا بجولد هو أنه كان عضوا في مجلس أمناء مكتبة الإسكندرية الحديثة[3] وأنه أنشأ في حياته حسابا لمساعدة المكتبة وأنه ترك بعد مماته الكثير لها. كما أنه كان صديقا شخصياً للأستاذ الدكتور إسماعيل سراج الدين، مدير المكتبة.

توفي جولد في عام ٢٠٠٢ عن سن يبلغ ٦٠ عاما.

❀ ❀ ❀ ❀

كان هذا الكتاب آخر كتب جولد، فقد كتبه على مدى سنوات طويلة وانتهى منه قبل موته بأيام، وقد تم نشره بعد وفاته بسنة. لهذا فإنه لم يقم بنفسه

---

[1] Trilobites

[2] Punctuated Equilibrium

[3] Bibliotheca Alexandrina

بمراجعته وتم نشر الكتاب على الحال الذي تركه به، وقد يكون هذا سببا في صعوبته، وإن كان في نفس الوقت سببا في بعض جاذبيته.[1]

أقدم لك أيها القارئ العزيز هذا الكتاب الذي أرجو أن تتمتع به كما تمتعت به شخصياً.

سمير حنا صادق

٢٠٠٤

[1] وبالمناسبة، لايمثل الكتاب الحالى تجميعاً لمقالات نشرت فى مجلة التاريخ الطبيعى ككثير من كتبه الأخرى (التحرير).

THE HEDGEHOG,

THE FOX, AND THE MAGISTER'S POX

STEPHEN JAY GOULD